

في المغرب الأقصى

بقلم السيد محمد سعيد الزاوي

المغرب الأقصى أم مراکش؟

أما الكتاب في مصر وفي غيرها من بلاد المشرق ، فانهم يطلقون كلمة « مراکش » على المغرب الأقصى ، ثم تابعهم على ذلك حملة الأقلام في الجزائر وتونس ؛ وأما أدباء المغرب الأقصى فانهم يطلقون « مراکش » على المدينة لا على عموم القطر ، وهم يكرهون منا أن نسمي بلادهم « مراکش » وأن نسميهم « مراكشيين » ، بل يريدون منا أن نسميهم « مغاربة » وأن نسمي بلادهم باسم « المغرب الأقصى » ، وقالوا إن كلمة « مراکش » بمعنى القطر هي تعريب لكلمة (MAROC) الفرنسية ، والحق أن هذه الكلمة الفرنسية هي التي تقلت عن العربية بلفظها ومعناها فقد كان الأدباء العرب يطلقون كلمة « مراکش » على القطر كما يطلقونها على المدينة ، وهناك أكثر من كتاب وضعه الأولون في « أخبار الدول المراكشية » وهم يسمون « أخبار دول المغرب الأقصى » ؛ وأنا شخصياً استحسن أن أسمى « المغرب الأقصى » باسم « مراکش » المدينة التي كان لها على عهد دول الاسلام شأن عظيم ، والتي ما تزال إلى الآن من أكثر مدن المغرب الأقصى سكاناً وعمراناً ، والتي هي من أجل العواصم التاريخية لتلك البلاد الكريمة ، كما أسمى المغرب الأوسط باسم « الجزائر » والمغرب الأدنى باسم « تونس » ؛ ومع ذلك ، ومع أننا كلنا « مغاربة » ، فاني أسمى « المراكشيين » باسم « المغاربة » ، وأدعهم بأحب الأسماء إليهم ، وأدعو بلادهم « المغرب الأقصى » .

وهذان (مراكش) !

لو أن كاتباً مغربياً (من الجزائر أو تونس أو المغرب الأقصى) كتب وقال إن مدينة الاسكندرية في فلسطين ، أو إن بيروت هي في مصر أو نحو ذلك ، لأكبر الناس منه هذا الخلط وعجبوا من أمره ، كذلك نحن للمغاربة عجبنا وتأسفنا جداً عندما رأينا في هذه الأيام جريدة عربية من أكبر الصحف في بيروت تزعم أن مدينة وهران في مراکش (المغرب الأقصى) ، وعندما رأينا أيضاً جريدة كبرى من أمهات الصحف في مصر تنشر خبراً من أخبارها قالت عنه إنه جاءها من تونس بالمغرب الأقصى !! وهكذا كثيراً ما نرى الكتاب والصحفيين في مصر والشام والعراق وسائر بلاد العرب إذا تكلموا عن بلاد المغرب (الأقصى والأوسط والأدنى) خلطوا في كلامهم خلطاً فاضحاً ، حتى كأنهم يتكلمون عن مجهول من الجاهل التي لم تطأها قدم

إنسان ، فتارة يحسبون أن وهران في مراكش ، وأن تونس في المغرب الأقصى ، وتارة يحسبون أن الدار البيضاء هي من مدن المملكة التونسية ؛ ومن العجب أن إخواننا في مصر والشام وغيرهما يحسبون الكلام عن بلاد الانكليز أو فرنسا أو هولندا ، ويعرفون جغرافية البلاد الأوروبية وغيرها ، ثم هم مع ذلك يجهلون جغرافية بلاد المغرب جهلاً يكاد يكون تاماً مطبقاً ، وليس من اللائق أن يجهلوا أو يتجاهلوا بلاداً تربطها ببلادهم جميع الروابط والصلات ، وليس في بلاد المغرب كلها من يجهل ما بين هذا المغرب العربي وبين الشرق العربي من رابطة العروبة والاسلام ، ولا ما بينهما من صلات في النسب والتاريخ وغير ذلك ، ولا من لا يعتقد أن هذه الأمة المغربية هي شعبة من الأمة العربية الكبرى بما فيها مصر ، أو أن هذه البلاد المغربية هي جزء لا يتجزأ من بلاد الاسلام ، وهذا هو ما يعتقده العامة والخاصة في الجزائر ، وتونس ومراكش .

أصدق كتاب عن « فاس »

ولعل كتاب الأخوين (طارو) هو أصدق كتاب باللغة الفرنسية عن فاس أو هو أقرب ما كتب عنها إلى الصدق ، وأدنى إلى الصواب ، فقد وصف فيه كاتبه الحياة المغربية بفاس وصفاً صادقاً عميقاً تغلغل من المجتمع الفاسي إلى الدخائل والأعمق ، وجلبا فيه الحالة الاجتماعية هنالك جلاء واضحاً مبيناً ، ولكن هذا الأمر لا يكون إلا بعد الدراسة الطويلة ، والبحث العميق ، والمسيو جيروم طارو لم يلبث في فاس — وهو بمفرده — إلا أياماً قليلة لا تكفيه لدرس تسمية الناسيين ولا للاطلاع على عاداتهم وأخلاقهم ، وهو بعد لا يعرف اللغة العربية التي يتكلمها أهل فاس ولا يتكلمون سواها ، فكيف أمكنه أن يخرج للناس باسمه وباسم أخيه (الذي لم ير فاساً فيما نعتقد) عن فاس هذا البحث الوافي ، والدرس المستفيض ؟ لقد كنت في حيرة شديدة من هذا الأمر الذي لا يستطيعه كاتب مهما أوتي من العبقريّة والنبوغ ، ثم عرفت أن رجلاً عربياً مغربياً من الجزائر لبث في فاس أكثر من عشرين سنة وأصر إلى بيت كريم من بيوتات فاس فتزوج بفتاة من بنات النعيم هناك ، وهو اليوم من تجار فاس المشهورين ، قد كتب عن فاس كتاباً وصف فيه مشاهداته ، وما رأى في فاس من أخلاق وعادات وصفاً مستوعباً دقيقاً تغلغل إلى دخائل تلك الحياة وأعمقها... ثم أحجم عن نشره باسمه ، لأن فيه أموراً لا تدرأ صهاره وإخوانه وأصدقائه من الفاسيين ، ولما لقيه المسيو جيروم طارو في فاس — وهو كاتب فرنسي كبير — تعرف إليه ، وأهدى إليه هذه المذكرات أو مسودات هذا الكتاب ليتبس منها ما يشاء ، فتناول الأخوان (طارو) ذلك بشيء غير قليل من التحوير ، وكسوه من فصاحة الأسلوب وسحر البيان أجل الحلل وأبدعها ، فاستحقا بذلك أن يكون هذا الكتاب لهما لا لغيرها ، وقد قالت العرب الأولى : « إن من استرقه ، فقد استحقه » (١) .

(١) علي أن لطارو فما كتبه عن فاس هنات وهنات لاتخلو من سوء نية .

حوار طريف:

وقعت بين المسيو جيروم طارو وبين « شيخ الجماعة » في فاس محاورة طريفة لم يذكرها طارو في كتابه عن فاس ، وهو أحوج ما يكون إليها ، وقد ذكر محاورات جرت له مع وزير العدلية وغيره فيما كتب عن الرباط ؛ وهي محاورات حول « دوران الأرض » أنكر فيها معالي الوزير المغربي ، أن تكون الأرض هي التي تدور ، وأتى بحجج على ذلك هي غاية في السخف والتفاهة مثل قوله : لو كانت الأرض هي التي تدور كما يقال لسقط كل من عليها من إنسان وحيوان ودور وقصور ، ولهوى ذلك كله في مكان سحيق ، وقوله : لو كانت تدور لتهدمت المنازل والبيوت ولشعرنا نحن بذلك ، وما إلى هذا من الحجج والبراهين ...

وهذه المحاورة التي جرت بين طارو وبين « شيخ الجماعة » في فاس هي من هذا القبيل ، ولو أن طارو فهمها على وجهها لطار بها فرحاً وسروراً ، ولوجد فيها لقلمه موضوعاً خصيباً ؛ ولكن الترجمان الذي كان بينهما لم يكن ينقل إلى الأديب الفرنسي أقوال شيخ الجماعة نقلاً مطابقاً بل كان يحرف الكلم عن مواضعه ، وكان يرد على أسئلة طارو بأجوبة من عنده هو ، ويحمل أجوبة الشيخ عمداً ولا يترجمها .

و « شيخ الجماعة » في فاس هو شيخ جامع « القرويين » ، وقد أراد طارو أن يجتمع به وأن يراه ، فطلب إلى ترجمان موظف هنالك أن يجمعه بشيخ الجماعة فوعده هذا الترجمان خيراً ؛ قال الترجمان (وهو الذي زوى عنه هذا الحديث) : لا أكتفك أني فكرت في مكان الاجتماع فوجدت أن في هذا الأمر صعوبة وعسراً ، فهل أجمعهما في فندق (التراز - تلاتيك) الضخم حيث يقيم المسيو طارو ؟ وهذا أمر مستحيل لا يكون بحال ، لأن الشيخ رئيس « القرويين » يرى أنه إن دخل هذا الفندق أو فندقاً آخر مثله أو أي مكان من هذا النوع ، فكأنما عصى الله ربه ! أم هل أجمعهما عند الشيخ الرئيس في مكتبه الخصوصي ؟ وهذا أيضاً لا يمكن ، لأن الرئيس ليس له مكتب بالمرّة لا خصوصي ولا عمومي ؟ قال الراوي : ثم اهتمت أخيراً إلى حل المشكل ، وجمعتهما في مكتبي أنا ، قال : وحضر طارو أولاً ثم جاء الشيخ الرئيس فقام الأول إجلالاً له وللسلام عليه ، وحسرت قبعتي من على رأسه ، ومديده يصفح الشيخ ، فقد هذا بدوره إليه يده متثاقلاً كارهها مشمئزاً كأنه يخاف أن ياتم بمصافحة هذا « النصراني » !

وقال طارو للشيخ : إننا وإن كنا مختلفين في الجنس واللغة ، فإن بيني وبينك غير ذلك رابطة أخرى هي أفضل الروابط وأمتها ، وهي رابطة العلم والأدب ... قال الراوي : فكره الشيخ الرئيس هذا الكلام وقطب في وجه الزائر لأنه يعتقد أن من لا يقرأ « مختصر خليل » في الفقه المالكي لا يكون عالماً ولا أديباً ، أي أن العلم والأدب في نظر « شيخ القرويين » هما « مختصر سيدي خليل » فقط لا غير ، وسأله طارو عن سير التعليم في « القرويين » وهل

يسير على وفق المناهج والأنظمة المتبعة الآن في الأزهر الشريف؟ قال الراوى: وكان طارو قد زار مصر، وحظى بمقابلة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر، وعرف حالة التعليم هناك، فأجاب الشيخ الرئيس بأن التعليم في «الترويين» على غاية مايرام يسير على أحدث المناهج، وأفضل الأساليب قال الراوى: والواقع أنه لا نظام في «الترويين» البتة، بل ولا يكاد يوجد فيه إلا تعليم عقيم لا فائدة منه ولا خير فيه، والشيخ لا يفهم ما هى المناهج ولا ما هى الأساليب لافى التعليم ولا فى غير التعليم؛ ولما قام «الشبان المسلمون» وجماعة الإصلاح الإسلامى فى مراكش يطالبون بإصلاح التعليم وتنظيمه فى «الترويين» كان هذا الشيخ الرئيس أول من أفتى بكفرهم!... وسأله طارو عن أساتذة «الترويين» هل يحملون شهادات علمية من جامعات، تعرف بها؟ وهل يتقاضون مرتبات شهرية كافية؟ فأجابه الشيخ بأنهم يحملون شهادات علمية من قسم «الترويين»، وبأنهم يتقاضون مرتبات شهرية كافية لايالبون فوقها مزيداً؛ قال الراوى: والحقيقة أنه ليس فى «الترويين» أى نوع من أنواع الامتحان بالمرة، وليس فيه أية شهادة علمية، لا ابتدائية ولا غير ابتدائية، ولا ينقسم طلبته إلى طبقات وأقسام ولا إلى فرق وفصول، وإنما يقرأون غالباً «منتصر خليل»، يجمع عليه الصغير المبتدئ والكبير المتقدم فى آن واحد؛ وأما المرتبات فإن من هؤلاء الأساتذة المدرسين من يتقاضى شهرياً مرتباً مبلغه خمسون فرنكاً فقط، وأوفرهم جراً من يتقاضى ما مبلغه مائتان من الفرنكات شهرياً؛ على أن هذه المبالغ لم يكن يتسامها مستحقوها بالنظام، فربما تأخرت، وربما «حسكت» فى الطريق. وهضى طارو يسأل الشيخ الرئيس أزيوازن له بين «الترويين» وبين «الأزهر» وبين حالى التعليم فيهما، فأجابه الشيخ بأن التعليم فى «الترويين» ذو خير وأفضل من التعليم فى «الأزهر» فقال طارو: وما ذو وجه هذه الأفضلية؟ فاحتد الشيخ الرئيس وكاد يتميز غضباً وغضباً؛ وجمع يده اليمنى بقوة وجعل يدها كفى يدها، ويعزقها عزفاً عنيفاً وهو يقول: «التدقيق، التدقيق، التدقيق» قال الراوى: ولا أكتحك أنى حرفت كلمة الشيخ هذه، ولم أترجها لطارو، كما حرفت غيرها من أجوبة الشيخ وأقواله لما رأيت فيها من عدم اللياقة.

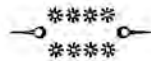
وهنا لابد أن نذكر أن هذه المأورة قد وقعت منذ أعوام؛ وأما اليوم فقد صدر ظهير سلطانى (مرسوم ملوكى) بتنظيم التعليم فى «الترويين»، ويجعله على ثلاث درجات، وبتصنيف المدرسين والمعلمين إلى ثلاثة أصناف: يتقاضى المدرس من الصنف الأول مرتباً شهرياً مبلغه ألف وخمسمائة فرنك، ويتقاضى المدرس من الرتبة الثانية ألفاً ومائتين من الفرنكات، ويتقاضى الثالث ألف فرنك. وتشرفت فى هذه الأيام بمقابلة صاحب المعالى وزير معارف المغرب الأسمى، وسألت معاليه عن هذا «الظهير» هل نفذ فعلاً؟ وما هى النتائج التى تنتظر منه؟ فقال: «إن المراد من هذا الظهير هو تحسين مرتبات الشيوخ المدرسين فى كلية الترويين، وهذا

هو أحمأ حاصل لحد الآن ، وما سيحصل . من سريان العمل بهذا الظهير... » ، وحدث غاية شريفة جداً لأنه ليس من الحق أن يكون رجال الشرطة وصغار الموظفين بالآيالة الثريفة يتقاضون مرتبات وافرة ضخمة ، ثم لا يتقاضى علماء القرويين إلا مرتبات تافهة ضئيلة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وهذا ما جعل الناس في المغرب الأقصى يقبلون على المدارس الفرنسية إقبالاً كثيراً ، وجعل بعضهم يعتقدون أو يزعمون أنه لا فائدة في العربية ولا في تعلمها .

« مختصر خليل » : وهذا الكتاب في الفقه المالكي له قيمة عظيمة عند الناس في بلاد المغرب كلها ، وربما قدسته العامة تقديساً ، وجملته بمنزلة القرآن الكريم ؛ و« العالم » أو « الأديب » الذي لا يبرز في استظهار « مختصر خليل » وفي حفظه ، لا يكون له عند العامة وأشباه العامة من طلبة الجزائر ومراكش أدنى قيمة ولا اعتبار ؛ وقد يبلغ الرجل رتبة عالية في العلم والأدب ويعترف هؤلاء الناس بفضلها وعلمه ، وتكون له شهرة واسعة يتمتع بها بين مختلف طبقات الناس ، ومع ذلك فإذا تمكن أحد خصومه من أن يرميه بأنه « لا يحب مختصر خليل » أو بأنه « لا يتم بهذا المختصر » كان ذلك وحده كافياً لاسقاطه من قمة الشهرة والجلد إلى الخسيس الأسفل من المقت والاحتقار ؛ ولهذا « المختصر » أنصار ومريدون في الجزائر وتونس ومراكش يسمون أنفسهم « خليليين » .

وقد بلغ من عناية الناس بهذا المختصر أنهم جعلوا له في جامع « القرويين » « حزاية » كما للقرآن « حزاية » ؛ و« الحزاية » هي جماعة من حفظ القرآن الكريم أو من حفظ « مختصر سيدى خليل » يجتمعون كل يوم في وقت معين ، ويتلون معاً (حزباً) أو (حزبين) (جزء) من القرآن أو من (مختصر خليل) عبادة وتبركا ، ثم يهدون ثواب ذلك إلى أرواح أهل الخير الذين وقفوا أوقافاً خيرية ينفق ريعها على هؤلاء (الحزاية) .

ومن العجيب أن (حزاية مختصر خليل) في (القرويين) يتناولون مرتبات شهرية هي أوفر وأسى من مرتبات الكثيرين من (حزاية) القرآن الكريم !
وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهري



الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر